عظة الحسون

عشيَّةَ يوم وقد أخذت عين الشمس المحمرَّة تغمض وتذبل ، وقف الحسون على غصنٍ صفصافةٍ قد تدلَّت أغصانها فوق جدول ماءٍ صافٍ ؛ حيث اصطفت على ضفتيهِ الطيور على تباين أشكالها واختلاف أجناسها

قال الحسون وقد سرَّهُ ائتلاف إخوانه الطيور حول ذاك الجدول، تستقي من مائهِ ، ومن ثمَّ تتفيأُ بظلّ تلك الصفصافة دون أدنى حسد أو تنازُع :

« إخواني، كنت ظننتُ أن تفاوت طبقاتكم وأجناسكم يحدث بينكم شيئاً من القلاقل والمشاغب ، ولكني والحمد لله رأيت خلاف ما ظننت ، فكأن تعدد مشاربكم ، وتشتت جماعاتكم ، وتباعد مساكنكم ، كل هذا لم يكن إلاَّ دافعاً لكم لتسلكوا سبيل الالفة والمحبة ، فضلاً عن أنكم سمحتم لمثلي أنا ابن الشعب الصغير فيكم بأن أعظكم كأني عظيمكم ، فالمولى يوفقكم ويديمكم ويرزقكم بُرًّا وماءً

أما عظتي التي أعددتها لمثل هذا الاجتماع لتلقى على مسامعكم في أوَّل هذا الفصل فهي :

ترون ولا شك أن الربيع قد برز بحلته وظهر بحسن طلعته ؛ وأخذت أنفاسه المنعشة تمرُّ مقبّلةً مباسم الزهور، وزهور الثغور . وأخذتم أيضاً تشعرون بالواجب عليكم ، وأنهُ يقتضي علينا أن نمزّق جماعاتنا المتحدة أفواجاً ونتفرَّق اثنين اثنين ؛ بحيث نتآلف أزواجاً « تصفيق أجنحة

وتغريد ألسنة » أرى أن السرور قد استفزّكم وأنا أعذركم على هذا ، إذ ليس أشهى من قرب الأحباب ، ولا ألذّ من العزلة لعشيقين افترقا مدة فذاقا الأمرّين

أجل ، إننا سنفترق الآن لنجتمع غداً . نفترق الآن اثنين اثنين ، لنعود أربعة وخمسة ؛ نفترق الآن لكي نعشش فنعتاض مما أفقدتنا تعديات البشر القساة ؛ نفترق لنعلّم الانسان كيف يجب عليهِ أن يسعى لأولاده ، ويجتهد بمساعدة زوجته . نفترق لنصير أزواجاً أصحاب عمل وأرباب بيوت فنكون أعضاءً عاملين في محيطنا الأدبي والمادّي . نذهب الآن ليفتش كل عصفور منا على عصفورة تناسبهُ وتعجبهُ ، فيحبها وتحبهُ ، ويتعاونان على تربية أفراخهما الصغيرة

إياكم أن يعتدي أحدكم على عصفورة صاحبه ؛ لأن ذلك يؤدي الى الخصام والمقاتلة . وقد قال الحكيم « الغيرة قاسية كالموت والمحبة عميقة كالهاوية » . إياكم أن يبقى أحد منكم دون حليلة ، لأنهُ يكون عرضة للانتقاد وإلقاء الشبهات ، والويل لمن تقع الشكوك عن يده ، ويقود أخاه الى عمل الإثم . اخواني ان الزيجة واجبة لازمة لا سيما وانها لا تكلفنا شيئاً نحن جماعة الطيور : بيت من القش اليابس ، وحبة حنطة من الحقل وقطرة ماء من النهر — هذا كلّ ما نتكلفهُ ، فلا نحتاج القصور ، لأن قصورنا الجدران العالية والأشجار الباسقة ، ولا نطلب الرياش ، فكل ما في الطبيعة من تلك التي لم يلبس سليمان كواحدة منها هو لنا ، ولا نطمع بالحلى ، فان ملابسنا لا تتغير فهي ثابتة مثل قلوبنا

تناسلوا وتكاثروا ، وعيشوا اثنين اثنين طول هـذا الفصل بمحبة وأمانة ؛ وليرعَ بعضكم بعضاً ، وليكن كلٌّ منكم أميناً على عهـد زوجته ، لا تخونوا الأن الخيانة من طباع اللئام . أوصوا فراخكم بان يحبوا فراخ سواكم لأننا بدون محبة ووفاق لا يمكننا أن نعيش ونحفظ كياننا

قبل أن تفترق الى أعمالنا ألفت أنظاركم الى شيء مهم . وهو أنهُ غداً يأتي الأولاد ، فيخربون بيوتنا ويسرقون أفراخنا ويأكلونهم ؛ ولو كنت ممن يميلون الى فعـل الشرّ لقلت لـكم : افقأوا أعينهم ! ولكن لا . فهذا يضرُّ بنا لأن ابن آدم حقود ، فتجنبوا البشر كثيراً ، لأنهم اذا كانوا يقتلون ويأكلون بعضهم بعضاً ، فكيف تكون حالهم معنـا ؟ . لا تتمثلوا بهم ، اذ يأتون اليكم وبينهم المسيحي والسنيّ واليهودي ، وكلهم قد اتفقوا على الشرّ والاعتداء عليكم . أقول لـكم اتحدوا ، ولـكن على الخير لا على الشرّ ، فكما انهم يتحدون على الشرّ دون الخير كذلك أنتم اتحدوا ولـكن على الخير لا على الشرّ

غداً يؤمُّنـا الصيادون . فلنهرب ! أتعرفون الى أين ؟ الى مكان لا تظنونهُ موافقاً وأميناً ولـكنـهُ على عكس ما تظنون . غداً بعد ما يتم نتاجنا ، ويجتمع شتيتنا ، وتلتئم أسرابنا ، نقصد بلاد البلقان هناك يلهو عنا الانسان بقتل أخيهِ الانسان

سرار ابي نادر

ليس لكذوب مروءة ، ولا لضجورٍ رياسة ، ولا لملولٍ وفاء ، ولا لبخيل صديق